صلاح الدين الايوبي

●

في ليلة داجية من شتاء سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) ، وفي بريـة مقفرة ليس فيها أي اثر لانسان او حيوان او نبات ، كان يسري رجلان طويلا القامة شديدا البأس ، يتبعهما بضع نساء واطفـال ، ودابة هزيلة أبهظها ما تحمل من اثاث وأجهدها طول السرى في ذلك الطريق الوعر ، يجرها شيخ بدين كأنه مثال للرضى والقناعة والصبر العجيب .

وكان احد هؤلاء الرجلين ، وهو اطولهما قامة واكبرهما سناً ، يدعى نجم الدين ايوب ، واما الثاني ، وهو اكثر امتلاء وأوفر قوة ، فيدعى اسد الدين شيركوه ، وكلاهما ولد شادي بن مروان أحـد زعماء الاكراد في دوين ، وهي بلدة في اطراف اذربيجان من جهة ايران وبلاد الكرج على ما قال ابن خلّكان . وكانت الاقدار قد حملت هذا الزعيم من بلاده الى بغداد ، فرحّب به حاكمهـا بهروز لصداقة قديمة بينهما ، واقطعه قلعة تكريت القائمة بين بغداد والموصل ، ولما مات عَهِدَ بالقلعة الى ابنه نجم الدين وجعله حاكماً لها فظل على ذلك اعواماً طويلة . ثم اخذ بهروز يتنكر لنجم الدين شيئاً فشيئاً ، حتى بلغه ان اخاه شيركوه قد قتل احد ضباط المدينة لملاحاة جرت

بينهما ، فارسل اليه يأمره بتسليم القلعة الى عامل آخر والخروج مع اهله من تكريت .

وكان نجم الدين قد ألف القلعة وصارت له كالوطن ، فثقل عليه الخروج منها شريداً طريداً ، ناهيك بما في ذلك من الخزي والعار . وبينا هو يطيل التفكير في امره ،ورسول بهروز لم يبارح مجلسه بعد ،إذا برسول آخر يقبل من بيته ويبلغه ان زوجه تبشره بانها قد وضعت غلاماً ، وانها سمته كما اتفقا : يوسف صلاح الدين . فتشاءم الرجل من هذا الاتفاق ، وتطيّر بالوليد الصغير . ثم مالبث ان التفت الى اخيه فقال له : « اني خارج منذ الآن متستراً بجنح الظلام ، كي لا اُشمت بي الناس في وضح النهار . » ونهض فنهض أخوه ،وسار فتبعه . وما هي الا ساعة حتى كانا خارج القلعة مع نسائهما واولادهما ، وشيخ نصراني من بغداد كان يكتب لهما ، واخذوا يضربون على غير هدى في جوف الليل .

ظلت القافلة الصغيرة تتابع السرى حتى بلغت بقعة من الارض لا يميزها وسط تلك القفار سوى عدد من اشجار النخيل . وكان الصبح يوشك ان يطلع ،وقد مسح بيده عتمة الليل ، فأخذت الاشياء يتميز بعضها من بعض . فوقف نجم الدين يفكر ، ووقف اخوه الى جانبه منكس الرأس مثقل الضمير ، لا يجرأ ان يرفع اليه عينيه ، لاعتقاده بانه هو السبب في هذه الكارثة التي حلت باخيه . واذا بالوليد الصغير ينفجر باكياً على يدي امه ، فازداد نجم الدين حنقاً وتطيراً ، وهمّ في سورة غضبه ،ان يبطش به ، ليريح نفسه من عبئه ويريحه من حياة ليس من يدري اين تفضي بها هذه البداية المخوفة .

فصرخت الام باكية متوسلة ، وهرع نحوه اخوه مهدئاً من روعه ، وأمسك كاتبه النصراني بيده وهو يقول له بصوت متضرع شفيق : « ألا ناشدتك الله ان تستبقيه ، فهو طفل ليس له ذنب ولا يعرف ما انت فيه من الكدر والغم ، ولعل الله جاعل له شأناً » فأجاب الاب الحانق : « واي شأن عساه يكون له ؟ ألا ترى انه نـــذير شؤم وبؤس .. ألا ترى في اي يوم جاء .. فما عسى ينتظره من الحيـاة وما عساني انتظر منه ! » فقال الشيخ : « رويدك يا نجم .. اشفق عليه وعلى نفسك ، فلعل فيه الخير وانتم لا تعلمون » .

وانه لحائر لا يدري أيتجه الى يمين ام الى يسار ، وهل ينكفىء صوب الشمال أم يضرب في البادية نحو الجنوب ، اذ أضاء في ظلمة حيرته ويأسه شعاع من أمل : لماذا لا يذهب إلى عماد الدين زنكي ؟ لقد جاءه هذا الرجل منذ سنوات في ليلة تشبه هذه الليلة بجوهـــا العاصف وظلمتها الداجية ، وفي حالة تشبه حالته الان بقلقها العنيف وحيرتها الطاغية ، وكان قد سار بجيشه لمظاهرة السلطان مسعود على الخليفة المسترشد فانهزم في المعركة التي خاضها ، وارتـد راجعاً الى الموصل ، ومر في طريقه بتكريت ، وهو وفلول جيشه المهزوم على حال مريعة من اليأس والاعياء والجوع ، فلاذوا به ووضعوا مصيرهم بين يديه ، ان شاء أبقى على حياتهم وساعدهم على متابعـــة طريق العودة الى بلدهم ، وان شاء اسرهم وقضى عليهم ، فآثر المكرمة والمعروف ، وآواهم وموّنهم ، ثم ساعدهم على اجتياز دجلة وبلوغ هدفهم ، بما اعطاهم من قوارب وبما وفر لهم من سبل النجاة . ولا ريب في ان عماد الدين يذكر له هذه اليد ويعرف له هذه الصنيعة ، ويود

لو يجزيه على جميله خير الجزاء . فلماذا لا يلجأ اليه وهو اليوم أحوج ما يكون الى معين ؟

ولقد صدق ظن نجم الدين ايوب ، فانه ما كاد يبلغ الموصل حتى احسن صاحبها عماد الدين زنكي وفادته واخاه ، واكرم مثواهما ، وأقطعهما أرضاً يعيشان فيها . وقد قابل الاخوان هذه المكرمة بما تستحقه من الجميل ، فخدما في جيش عماد الدين ، وأخلصا له الخدمة وأحرزا انتصارات عديدة زادت في حبه لهما وتقديره اياهما ، فلما سقطت بعلبك في يده سنة ٥٣٤ (١١٣٩) عهد بادارتها الى نجم الدين

ولما توفي عماد الدين زنكي ، هب اولاده يتنازعون على اقتسام ملكه ، وهبت دمشق التي كانت في يد اسرة طغرتكين ، لاسترجاع بعلبك من ابنه محمود نور الدين . وادرك نجم الدين ايوب ان هذه المدينة لا بد من ان تسقط في ايدي الدمشقيين ، لضعف حاميتها وانصراف ابناء عماد الدين الى النزاع فيما بينهم ، فسلمهم اياها مقابل تعهدهم باقطاعه عشر قرى في جوار دمشق . وما لبث ان رحل الى هذه المدينة فاقام فيها والتحق بخدمة ايبك اكبر اولاد توغتكين ، وما زال هذا يقربه منه ويجازيه على خدماته حتى جعله قائد قواد الشام . بينما بقي اخوه اسد الدين شيركوه في خدمة نور الدين زنكي ، وأبدى من ضروب الأخلاص والشجاعة ما جعله هو ايضاً قائداً لقواد حلب .

وكان ملك نور الدين يتسع ، ونفوذه يتعاظم ، حتى طمع بضم الشام الى امارته ، ووجه اليها في اواخر سنة ٥٤٧ (١١٥٤) جيشاً بقيادة شيركوه لمحاصرتها وافتتاحها . واقبل شيركوه بجيشه اللجب

فحاصر دمشق ، ووقف اخوه نجم الدين ايوب على رأس جيش توغتكين مدافعاً عنها . وحار الاخوان فيما يصنعان . وكانت تساور نجم الدين عواطف قوية متضاربة ، فهو لا يريد ان يحارب اخـــاه ويخشى ان يصيبه من هذه الحرب سوء ، ثم ان الجيش الذي يقوده اخوه هو جيش نور الدين بن عماد الدين زنكي الذي أحسن اليه لما هاجر من تكريت واكرم مثواه ، يضاف الى ذلك انه على يقين من ان جيش دمشق اضعف من ان يثبت في وجه الجيش المهـاجم الى النهاية . وما لبث ان عمد الى مفاوضة اخيـه على ابرام الصلح بينهما ، واستمرت هذه المفاوضة ستة ايام انتهت بتسليم دمشق ، وانتقالها الى يد اقوى امير في سورية عهد ذاك . وعرف هذا الامير لنجم الدين ايوب حسن مسعاه فعينه حاكماً لدمشق ، وأدناه من مجلسه حتى أصبح من أخص المقربين اليه .

❁

وحياة صلاح الدين في هذه الحقبة يحيط بها الغموض ، لم تعرف تفاصيلها على وجه التدقيق . ويذهب بعض المؤرخين الى انه كان خلالها شاباً صالحاً ناسكاً بلغ من تقاه انه كان ينزوي في اركان المساجد وزوايا البيوت . والراجح انهم يبالغون في ذلك بعض الشيء ، مدفوعين بالرغبة في التوفيق بـــين حياة صلاح الدين في مراحلها المختلفة ، او ليرفعوه فوق حياة الناس العادية . يدل على ذلك اجماع المؤرخين على انه لما قام عمه شيركوه بامارة الحج سنة ٥٥٥ (١١٦٠) لم يرافقه الى المدينة المكرمة لتأدية فريضة الحج فيمن رافقه من الامراء والاعيان ، واشارة تاج الدين شاهنشاه في

تاريخه وابن شداد في نوادره ، الى انه كان يشرب الخمر ويتعلق باسباب اللهو وقد اعرض عنها لما تولى وزارة العاضد وهو في سن الثانية والثلاثين .

وفي وسعنا ان نتخيل حياة صلاح الدين في هذه الحقبة فنراه يدرج في المغاني الفيحاء والبساتين المطردة بين بعلبك ودمشق محاطاً بعناية موفورة متمتعاً برغد العيش ، ثم نراه يختلف الى كتاتيب دمشق فيتلقى العلوم والآداب المعروفة في ذلك العهد ، ولا بد من ان نرافقه الى فلواتها الفيح وسهولها الممتدة على تخوم البادية العربية حيث مَرِن على ركوب الخيل ولعب الكرة والقنص ومنازلة الابطال وغير ذلك من اعمال الفروسية التي برع بها ، وربما شهدناه بين حين وآخر في مجلس من مجالس الأدب والظرف او في حلقات الجامع الاموي يستمع الى محاضرات عبدالله بن عصرون . فلا ريب في انه قد عرف هذا كله واكثر منه ، وخبره خبرة طويلة ، حتى اكتملت له تلك الرجولة العارمة والشخصية الفذة ، وتوافرت له صفات الفروسية العربية من شجاعة وشهامة ونبل ومروءة اكثر مما توافرت لأي فارس عربي آخر .

أما ابن شداد الذي رافق صلاح الدين وكانت ترجمته له اوسع التراجم العربية القديمة ، فهو يجمل حياته في هذه الحقبة بقوله : « واتفق لوالده الانتقال الى الشام ، ثم اعطي بعلبك واقام بها مدة ، فنقل ولده المذكور الى بعلبك المحروسة وأقام بها في خدمة والده يتربى تحت حجره ويرتضع ثدي محاسن اخلاقه ، حتى بدت منه امارات السعادة ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة ، فقدمه

الملك العادل نور الدين حمود بن زنكي رحمه الله تعالى ، وعوّل عليه ونظر اليه وقربه وخصصه ، ولم يزل كلما تقدم قدماً تبدو منه اسباب تقضي تقديمه الى ما هو أعلا منه » .

obeikandl.com